التأويلية (*Hermeneutics*) عند شلاير ماخر

أ.م.د أحمد واعظي (*)

تعريب: الشيخ فضيل الجزائري

ملخص البحث

تبدأ هذه الدراسة بالحديث عن مؤسس التأويليّة الحديثة، وهو شلاير ماخر، فهي نظرية الفهم، التي بدأها شلاير ماخر بسؤال: كيف تفهم عبارة كلامية أو كتابية، وقد قسّم الباحث بحثه على شكل نقاط وصلت إلى التسع، وخلص بعدها إلى أن شلاير ماخر كان واعياً كلّ الوعي بأنّ "عملية الفهم" لا تتيَّسر إلَّا باشتراك أفراد النوع الإنساني في أصل الوعي الواحد(الوجدان المشترك)، الأمر الذي يؤثِّر في فهمهم ليس معاني الكلمات فحسب، بل حتى في فهمهم لإشارات الآخرين وسلوكياتهم، وببيان آخر: إنَّ هذا "الاشتراك في الوعي" يجعلنا، من خلال وعينا بأنفسنا وأحاسيسنا، قادرين على فهم معاني كلمات الآخرين وإشاراتهم، وعلى هذا الأساس ادّعى شلاير ماخر أنَّ الاشتراك في الإنسانيّة هو أساس كلّ عملية فهم، ومع تفطنه لهذه النكتة ووعيه الكامل بها لم يفلح في بناء على أساسها تأويلية عامة ومناسبة، بل جعل الاتجاه التقليدي في تفسير النصوص محور تأملاته وتحليلاته التأويلية، ووُفِّق

(*) أُستاذ في جامعة باقر العلوم، ايران، قم.

فقط لبعض الابتكارات منها أنّه أخرج التأويليّة من دائرة النصّ وحصرها فيه إلى فضاء الكلام الشفاهي، استمداداً من هـذه النظريّـة وتأكيـداً عـلى ضرورة التعاطف وتجديد عملية الفهم، فقد تمكن ديلتاي في حين محافظته عـلى الغايـة النفسانية لتأويلية شلاير ماخر من توسيع دائـرة هـذا الحقـل المعـرفي الجديـد بحيث طال جميـع فـروع العلـوم الإنـسانيّة وتجـاوز حـدود الفهـم الكلامـي والنصي.

التأويلية (*Hermeneutics*) عند شلاير ماخر

يُعرف شلاير ماخر (١٧٦٨-١٨٣٤ م) عادة مؤسس التأويليّة الحديثة، وسنتناول آراءه بالتفصيل في ما سيأتي من المباحث، ونكتفي هنا بذكر - بنحو الإجمال- ما أحدثه في هذا الحقل من تغييرات تمثّل الأساس الذي قامت عليه تأويلية القرن التاسع عشر، بل طالت تلك التغيرات تأويلية القرن العشرين المتمثلة في التأويليّة الفلسفيّة أيضاً.

ومن النكات التي ابتكرها شلاير ماخر هي أنّه عرَّف التأويليّة بأنّها "نظرية الفهم" (Theory of understanding)؛ فإنّه بدأ بحوثه التأويليّة بهذا السؤال: "كيف تفهم عبارة كلامية أو كتابية؟ فالنظرية التأويليّة القديمة ترى فهم النصّ أمراً طبيعياً؛ لأنَّ الألفاظ واضحة المعاني ويكفينا لفهمها أن نعرف اللَّغة وقواعدها، إلَّا في الموارد التي يكون هناك إبهام في النصّ فنّلجأ حينئذٍ إلى عملية التفسير؛ ففي واقع الأمر يلعب فنّ التأويلية، في ضوء هذه الرؤية، دور المساعد على هذا الأمر الطبيعي، أمّا الأمر الطبيعي لدى شلاير ماخر فهو سوء الفهم (Misunderstanding)؛ حيثُ إنَّ التأويليّة عند السابقين تشرع حين نواجه إبهاماً على مستوى النصّ، فيما تشرع عنده من البدء في محاولة فهم النصّ؛ لأنَّ احتمال وقوع سوء الفهم متوقع في جميع مراحل عمليّة الفهم، وهذا يشكّل فرصة لتدخل التأويلية، فالاحتياج إلى التأويليّة ملازم دائماً لسوء الفهم، باعتبار أنّ الفهم - في ضوء هذه الرؤية الجديدة - معجون بالتفسير، ومن ثمّ لا نحتاج إلى عملية التفسير فقط في مقطعٍ خاص من الزمان.

ارتكز شلاير ماخر في تحليلاته التأويليّة على الخاصيّة الجدليّة للنصّ وحتميّة التحاور معه، فالتأويليّة تمثل - في رأيه- فنّ الإدراك الصحيح للخطاب والنصّ، فالشخص الذي يسعى إلى فهم النصّ يجب عليه أن يتحاور معه حتى يصل من خلال ذلك إلى ما وراء دلالة الألفاظ، ومن ثمّ تمثل التأويليّة فنّ سماع بلاغ المتكلم وفنّ فهم الحوار الواقع بين المتكلم والسامع، ومن هنا يتّضح لنا أنَّ التصور الذي يحمله شلاير ماخر عن التأويليّة يقوم على أساس هذه الأرضية الجدليّة القائمة بين المتحاورين، فعلى ضوء هذه الرؤية التأويليّة يضحى الفهم الدقيق للنصّ والمطابق للواقع أمراً في غاية الصعوبة؛ فإنَّ تأكيده (عنصري الحدس والتنبؤ) واحتمال عدم مطابقتهما مع معنى النصّ الواقعي أدّى إلى أن تحيط بالفهم والتفسير هالة من الإبهام والتردد.

لم ينشئ شلاير ماخر نظريته التأويليّة من فراغٍ بل يرى سعيه من صميم الحركة الرومانسيّة في أوّلي بدايتها والذي زعزع حياة أوروبا الفكرية ما يقرب عقدين من الزمن، كما نلحظ ذلك في الأعمال التي ظهرت على مستوى علم الجمال وفنّ الشعر الجديد اللذين ابتكرهما كلّ من الفيلسوف فيخته (Fichte) وشيلنج (Schelling) وما أثاره النقاد من أمثال الأخوة شلجل (فردريك وآجوست) من أفكار ...كل هذا قد فتح أبعاداً جديدة للحركة التأويليّة وحدّد لها وظائف لم تكن معهودة من قبل، فلم تعدِ التأويليّة تشغل نفسها بحلّ رموز المعنى المفروض أو رفع الموانع التي تعيق الفهم الصحيح، بل اهتمّت بأمور أعلى من هذا بكثير؛ إذ جعلت الأساس هو "الفهم" نفسه، ووسّعت في توضيح شرائط تحققه وآليات تفسيره.

أمّا التأويليّة قبل الحركة الرومانسيّة فقد كانت تتوهم أنَّ قارئ النصّ سيفهم كلّ شيء بحيث يكون في متناول يده تمام معنى النصّ الباطني، وذلك ما دام لا يواجه في قراءته إبهاماً في النصّ أو فقرة تنطوي على مفارقة من المفارقات، وإذا حدث ذلك تتدخل التأويليّة وترفع هذه الموانع من البين، وشلاير ماخر، الذي كان يتنفس في فضاء الرومانسيّة، طرح اتجاهاً جديداً يقضي بأنّنا لا يمكننا أن ندعي فهم شيءٍ من الأشياء ما دمنا لم نستطعْ تحديد هوية هذا الشيء تحديداً ضرورياً وبالتالي إدراكها.

وإذا كانت الرومانسيّة تعني التطلع غير المشبع نحو الكمال؛ فيجب عدّ النظريّة التأويليّة التي أثارها شلاير ماخر في القرن التاسع عشر نظرية رومانسيّة، ولهذا السبب رأى أغلب محققي التأويليّة لهذا القرن أنَّ ما طرحه هذا الرجل من آراء في هذا الحقل المعرفي نهاية لأعمالهم التي امتنعوا عن نشرها، ممّا دفع أغلبية طلابهم إلى جمع آراء أساتيذهم ونشرها.

والحركة الرومانسيّة (التي نشأ شلاير ماخر في أحضانها) تأثّرت بالثورة الكوبرنيكية التي تزعمها الفيلسوف الألماني كانط؛ فإنَّ كتابه "نقد العقل الخالص" أدى دوراً أساسيّاً في تضعيف العقل النظري ومنزلته، وأوجد أرضية للانتقال من عقلانيّة عصر التنوير إلى الرومانسيّة، وقد كانت الفرضيّة القبليّة التي تحملها عقلانيّة عصر التنوير تتمثل في أنَّ الذهن الإنساني، على الرغم من محدوديته، يستطيع أن يغوص في نظام العالم بمدد من الفكر المهتدي بأصول عقلانيّة غرست في ذهننا، واتضح من تفكيك كانط بين الشيء في نفسه (نومن) والشيء عندنا (فنومن) نقطة مهمّة هي أنَّ ما هو معلوم لدينا هو ظواهر العالم أطَّرها الذهن الإنساني على مستوى الفاهمة، فتبقى الأشياء في

نفسها مجهولة وبعيدة عن متناول الذهن، وتشكل النقطة السابقة أحد أصول التي قامت عليها الرومانسيّة والتأويليّة الحديثة.

وكلَّما مارست رؤيةٌ كونيّةٌ (منها الرؤية التفسيريّة) عمليّةً تفسيريّةً أو رأياً ذاتيّاً (في مقابل الموضوعي) أُثير السؤالُ الآتي: "هل تتيسّر الموضوعاتية في الممارسة التأويليّة؟".

وفي النهاية وصلت رومانسية شلاير ماخر إلى هذه الفكرة وهي أنَّ الأمر الشائع والعام هو سوء الفهم وعدم الاطمئنان إلى ما نفهمه من مراد المؤلِّف، غير أنّه لم يبذلْ أيَّ جهدٍ لتحديد ماهيّة سوء الفهم بخلاف ما فعلته تاريخانيّة القرن التاسع عشر؛ فإنَّ تاريخانيّة القرن التاسع عشر (التي تسمى بالنسبانية كذلك) تعتقد أنَّ كلّ ظاهرة خاصّة يجب أن تُفهم وتُدرك في الفضاء التي نشأت فيه، ومن ثمَّ لا يمكن مطلقاً الحكم على العصور الأُخَر بمعايير هذا العصر، وإذا جئنا إلى آرائنا في ما يتّصل بالعصور الغابرة فإنّنا نجدها أثيرت في ضوء معايير زماننا، ومن هنا لا يمكن لنا العلم بالتاريخ علماً دقيقاً وكلّ ما نعلمه عن الماضي يمثّل علماً نسبياً، فكل من يحاول - في نظر التاريخانية- فهم النصوص أو أيَّ شيءٍ آخر في إطار معايير زمانه يقع في سوء الفهم بالضرورة، ومن هنا يظهر أنَّ عدم الاطمئنان إلى فهم حقيقة الماضي أمرٌ طبيعيٌ وعلى القاعدة.

نكتفي بهذا المقدار لبيان الأرضيّة الفلسفيّة التي تشكّلت على أساسها التأويليّة الحديثة، وسنتعرّض في ضمن بحثنا عن التأويليّة الفلسفيّة إلى الأصول الفكرية والتأريخيّة التي أدّت إلى الانتقال من الميتافيزيقا إلى التأويليّة الفلسفيّة.

تأويليّة شلاير ماخر

تتمتع تأويليّة شلاير ماخر بخصوصيات ميّزتها من التأويليّات السابقة عليها امتيازاً تامّاً، فإنَّ هذا المحقق الكبير فتح آفاقاً جديدة في هذا الحقل المعرفي كانت منشأً لإلهاماتٍ كثيرة لدى من جاء بعده، وأثّرت تأثيراً عميقاً في تكامل التأويليّة وتوسّعها الكمي والكيفي، وفي الآتي نشير باختصارٍ إلى أهمِّ ما طرحه من آراء في هذا الحقل المعرفي:

الأوّل: من ابتكارات شلاير ماخر في هذا المجال أنّه جعل ماهيّة الفهم، والتفسير مسألة مستقلّة عن مسائل التأويليّة الأُخَر، فإنَّ ما كان يشكل همّ التأويليّة قبل شلاير ماخر هو الآليات التي تساعد على تحقّق عمليّة الفهم والمنطق الذي يعيننا على تفسير النصّ ورفع ما يلفه من إبهام، ولم تتناول أبداً ماهيّة الفهم والموانع التي تعيقنا على فهمه.

أمّا شلاير ماخر فقد أعاد بناء الفهم والتفسير من جديد، وأنتج ماهيّة جديدة لكلّ منهما؛ فحينما يتعاطى أهل الفنّ فهمَ أثرٍ فنّيٍّ خاصّ فهم - في الواقع - في صدد صنع تاريخي لهذا الأثر من جديد، وذلك بدخولهم إلى العالم الذهني لصانع هذا الأثر حتّى يتسنّى لهم درك المعاني التي يحملها هذا الأثر الفنّي.

بكلمة ثانية: لكي نفهم المعنى الذي يشير إليه هذا الأثر الفنّي يجب علينا معرفة ذهنيات فاعل الأثر، فيجب على المفسِّر أن يؤسِّس من جديدٍ الحالة التي كان عليها ذهن فاعل الأثر الفنّي ويخلق منها إنتاجاً جديداً، ويسعى إلى لمس العالم الذهني الذي أنتج هذا الأثر الفنّي.

ونجد القصة نفسها في تفسير النصّ، فإنَّ المفسِّر حينما يحاول الوصول إلى

معنى النصّ يسعى إلى صنع الذهنيّة التي أنتجت هذا النصّ من جديد، وبالتالي يقف على الفضاء الحاكم على ذهنيّة المؤلّف حين إنتاجه ذلك النصّ، أمّا قبل شلاير ماخر فقد كان تفسير النصّ أو فهمه عبارة عن "المواجهة مع النصّ وما يحتضنه من إبهامات"، في ما يتمثّل عنده في "المواجهة مع ذهنيّة المؤلِّف" والوصول إلى ديار ذهن المؤلّف من خلال ترميمها وبنائها من جديد؛ بمعنى: درك فردانية المؤلّف وفاعل الأثر.

الثاني: ما تبنّاه شلاير ماخر من رأي في ما يتّصل بماهيّة النصّ والتفسير سبّب في تغيير رسالة التأويليّة، فحينما تتمثّل رسالة التأويليّة في رفع الإبهامات التي تلفّ النصّ فيكون فهم النصّ أعمّ من تفسيره، ويضحى التفسير ممارسة قد نحتاج إليها في بعض الأحيان، وبالتالي: تكون رسالة التأويليّة رسالة خاصّة وليست عامّة؛ أي: أنّنا نحتاج إليها في مواضع خاصّة وهي المواضع التي تظهر فيها إبهامات على مستوى النصّ؛ فالنظريّة التي تبناها شلاير ماخر قد وسعت من دائرة اهتمام التأويليّة؛ الأمر الذي أدّى إلى توسع في رسالتها حيث خرجت من دائرة خاصّة وموضع خاصّ إلى دائرة عامّة وموضعٍ عام؛ لأنَّ فهم الأثر هو درك فردانية صاحب الأثر وترميم دنياه الذهنيّة التي عايشت ولادة الأثر، بناءً على هذا: أنّ كلّ عمليّة فهم تحتضن درك فردانيّة شخصٍ ما، وإذا عرفنّا التأويليّة بأنّها "فنّ فهم الأثر، أو آلة لفهم الأثر، أو تفسير فهم الأثر" فقد جعلنا من التأويليّة رسالة عامّة؛ لأنَّه أينما يكون فهم ستكون التأويليّة آلته وفنّه، وبالتالي: إذا شئنا معرفة سرّ عموميّة تأويليّة شلاير ماخر فيجب علينا البحث عنها في تفسيره الخاصّ لمقولة الفهم.

الثالث: وسّعت النظريّة دائرة التأويليّة من جهة الكم أيضاً؛ فإنَّ

التأويليّة، في رأيه، يجب أن تشمل جميع النصوص المختلفة بما فيها النصوص الأجنبية والمترجمة من اللغات الأُخَر ولا نحصرها في النصوص الدينيّة فقط، بل قد تجاوزت - عنده- حدود المكتوب وباتت تشمل حتى الكلام؛ على اعتبار أنّه لا يوجد تفاوت جوهري، فبما يراه هو، بين فهم النصّ وفهم الكلام؛ فتوسيع شلاير ماخر لدائرة التأويليّة من المكتوب إلى القول الشفهي قد تلقفه المحقّق ديلتاي الذي وسَّع بدوره من دائرة موضوع التأويليّة إلى أن بات يشمل مطلق العلوم الإنسانيّة.

الرابع: يشكّل كلٌّ من المقول والمكتوب، حين عرضه على المخاطب، قطعة فنيّة؛ فإنَّ المؤلّف أو المتكلّم بعدما يبلور الإحساس أو المعنى في ذهنه يصيغه في قالب العبارات الكلامية أو الكتابية، وهذه الصياغة ليست ميكانيكيّة وانعكاساً فكريّاً قهريّاً أو مجرد إحساس ذهني، بل إنّ الفنّ والذوق يلبسان هذه المعاني لباس الألفاظ والكلمات، فإنّ المعاني والبيان وفنّ الشعر والذوق الأدبي تمثّل كلّها لباساً فاخراً يزيّن قامة المقول والمكتوب.

وفهم المكتوب والمقول وتفسيرهما يطويان مسيراً يختلف عن المسير الذي تطويه عملية التكلّم والكتابة؛ بمعنى: أنّنا على مستوى الفهم بدواً: نواجه النصّ والكلام، ونسعى - بعد ذلك- نحو درك الذهنيات والإحساسات التي ولَّدت العبارات، والحكم السابق نفسه الذي أجريانه في حقِّ صياغة المكتوب والمقول نجريه هنا؛ أي: أنَّ صياغة كلًّا من المكتوب والمقول في ثوبٍ فنّي ليست عمليّة ميكانيكيّة محضة، بل تخضع إلى طريقة فنيّة وذوقيّة، كذلك فهم معاني العبارات لا يحصل بمجرد إعمال القواعد الأدبيّة، بل يحتاج - هو بدوره- إلى طريقة فنيّة وذوقيّة، والوصول إلى ذهنيّة فاعل الكلام ودرك

فردانيته يحتاج إلى فنٍّ خاصٍّ، والفنّ الذي يتكفل بهذا المهام هو التأويليّة، ولذا تمثّل التأويليّة فنّ فهم النصوص والكلام[1].

الخامس: يُمثّل الفهم عند شلاير ماخر "درك فردانية شخص آخر"، وهو أساساً أمرٌ ممكن في حدّ ذاته؛ فعلى الرغم من وجود غربة بين "أنا" و"أنت" بدليل وجود فردانيات مختلفة، فهناك أذواق وإحساسات وتجارب مشتركة بين أفراد النّاس، كأنّ كلّ إنسانٍ ينطوي في باطنه على قطعة من الآخر؛ الأمر الذي يمكّننا من فهم الأشخاص الآخرين.

ومع وجود هذه الغربة بين أفراد الإنسان يبقى احتمال وقوع سوء الفهم قائماً، ومن ثمّ نبقى دائماً في معرض سوء الفهم وعدم درك فردانيّة المؤلّف وفاعل الأثر الفنّي أو الأدبي؛ وقد كان لشلاير ماخر اهتمامٌ خاصٌّ بهذه المسألة (سوء الفهم)، وكانت محاولة كشف طريقة ناجعة تخفف من الوقوع في سوء الفهم المحور الأساس في أبحاثه التأويليّة.

السادس: من النكات المهمّة في فكر شلاير ماخر تفطنه لعدم كفاية القواعد اللغويّة لتحقّق عمليّة فهم النصّ وتفسيره، إذ كانت الرسالة الوحيدة للتأويليّة قبل شلاير ماخر هو تنقيح القواعد الأدبيّة والنحويّة لحصول عمليّة الفهم، فإنَّ كلادنيوس قد تفطّن إلى هذه النكتة وهي: إنّ ما في ذهن المؤلّف ربما يكون أسمى مما يستخرج من مدلولات الجمل التي ينطوي عليها النصّ، لكنّه يرى أنّ وظيفة التأويليّة تتمثل في درك هذه المدلولات والمعاني، ولا تتجاوز هذه المرتبة من الفهم، أمّا شلاير ماخر فإنّه يرى أنَّ رسالة التأويليّة هي "درك فردانيّة المؤلِّف"، وهذا ما يفسّر اهتمامه الخاصّ بالمعاني المحتملة الخارجة عن دائرة القواعد اللغويّة والنحويّة.

السؤال: لماذا يتصور إمكان عدم المطابقة الكاملة بين مراد المؤلّف وما نستفيده من النصّ من خلال تطبيقنا للقواعد اللغويّة والنحويّة عليه، ولماذا يحتمل أن يكون مراد المؤلّف غير ما نفهمه من مدلول كلامه؟ لهذه المسألة أدلّة مختلفة نتعرض لبعضها على النحو الآتي:

الأوّل: من الممكن أنَّ المؤلّف لم يبيّن مراده ببيانٍ لائقٍ ومطلوب؛ فقد أشرنا في ما سبق إلى أنّ بيان الأحاسيس وإظهار الفكر وما في الضمير للمخاطبين في قالب العبارات الكلاميّة أو الكتابيّة فعاليّة فنيّة لا تخضع لنمطٍ واحدٍ يقع في متناول الجميع؛ فقد لا يتمكّن الشخصُ بعض الموارد من الإفصاح عن مراده بسهولة وبساطة، ويرجع ذلك إلى تفاوت الأفراد في الفصاحة والبلاغة، وفي النتيجة إنَّ حدوث سوء الفهم وعدم الانطباق الكامل لمدلول اللّفظ مع مراد المتكلّم ومقصوده أمرٌ متوقع.

الثاني: تُمثِّل اللغة آلة يوظِّفها المتكلّم والمؤلّف لإظهار فكره وإحساسه، وهي عبارة عن قوالب عامّة ومشتركة توضع في متناول يد المتكلّم، لكنَّها غير مُستفاد منها، بل هي معزولة عن تصرفات المستعمل لها؛ فإنَّ مستعملها قد يتصرف في هذه القوالب اللغويّة العامّة في بعض الموارد تصرفاً لا يفضي بها إلى التغيّر في ماهيتها ودلالاتها بحيث تنتفي عمليّة التفهيم والتفاهم بكلتيها.

إذن: المرادُ من هذا التصرف هو أنَّ المؤلِّف، في عين حفظه لبعض خصوصيات اللغة العامّة، يدخل بعض الأمور الجديدة في استعمالاته اللغوية، مثلاً: يأتي ببعض الاستعارات والتشبيهات الجديدة ويخلق علاقات جديدة بين بعض المعاني، الأمر الذي لا يتسنّى عمله على أساس القواعد اللغويّة والنحويّة، وهذا الأمر يقوِّي الجهة الذهنيّة والذاتيّة للمكتوب والمقول

ممّا يزيد في احتمال الخطأ ويوجد أرضيّة للوقوع فيه وسوء الفهم[٢].

الثالث: قد تتفاوت نيّة المتكلم مع ما نفهمه من ألفاظ عباراته؛ إذ قد يتحمّل اللفظ معاني متعددة ولا ندري المعنى المراد من المتكلم، وهل هو في مقام الجدّ أو في مقام الهزل[٣]؟

الرابع: إنَّ تفطّن شلاير ماخر لعدم كفاية التفسير القائم على القواعد النحويّة واللغويّة تركه يؤسِّس لنظرية تتمثّل في أنَّ الفهم يرتكِز على نوعين من التفسير:

أ. التفسير النحوي: وهو عمل يتّكئ على القواعد اللفظيّة والأدبيّة ويتعاطى مع النصّ والقوالب التعبيرية.

ب. التفسير النفساني والفنّي: الذي يسعى إلى فهم فردانيّة المؤلّف ذهنيته، فكما أنَّ للكتابة والتكلّم مرحلتين: ما يجول في الذهن وما يبيّن في قالب العبارات - كذلك الفهم أو التفسير يجب أن يطوي هاتين المرحلتين: فهم ما يصاغ في قوالب لغويّة (التفسير النحوي) وفهم ما في ذهن فاعل الكلام ونيّته (التفسير النفساني).

ويظهر، من التأمل في كتابات شلاير ماخر، أنَّ ما تبنّاه ممّا يُسمّى بالتفسير النفساني مرّ بمراحل تكامليّة؛ فإنَّ أوّل ما أثاره وأكّده هو أنّ فهم الجهة النفسانيّة لأيّ مكتوبٍ أو مقولٍ يحصل من خلال فهم الأُسلوب الخاصّ لصاحبه، وما دام استعداد فهم الجهة النحويّة للغة لا يقترن مع فهم فردانيّة المؤلّف التي تحصل من خلال الإحاطة بأسلوبه، فلا ننال التفسير أو الفهم المطلوب. وقد أشار شلاير ماخر (سنة ١٨١٩م) إلى أهميّة أسلوب المؤلّف بهذه العبارة "هدف التأويليّة الفهم الكامل والتّام لأُسلوب المؤلِّف"[٤].

فلم يكن التفسير النفساني، عند شلاير ماخر، يعني في بداية الأمر الالتفات الصحيح إلى فهم ذهنيّات المؤلِّف، بل كان يُمثّل طريقةً وإرشاداً إلى فهم أسلوب المؤلّف في استعماله لآليات اللغة وقواعدها، وأمّا في ما بعد فقد بات مرشداً لاستباء أصل النصّ من خلال فهم فعاليّات ذهن المؤلِّف؛ فلم تُعدّ ظاهرة الفهم والتفسير تُمثّل، بعد هذا التطور المُتمثّل في إثارة التفسير النفساني والفنّي بقصد ترميم ذهنيّة صاحب الأثر والتعاطف معها ... [تمثّل] مجردَ محتوى النصّ الخاصّ والأساسي، بل أخذ "عملية بروز باطن الفكر بواسطة اللّغة"[٥].

الخامس: ظاهرة فهم النصّ تتمُّ، في الرؤية الشلايماخرية، من خلال درك أمرين اثنين:

١. الفهم النحوي (اللغوي) للنصّ، وهو يُمثّل أمراً موضوعيّاً نحصل عليه من خلال استخدامنا للقواعد والقوانين المتواضع عليها.

٢. الفهم الفنّي للنصّ، وهذا بوصفه ينطوي على بعد نفساني ويتعلّق بفكر المؤلّف وكيفيّة استخدامه للغة وتصرفه فيها يُمثّل مشكلاً أساسيّاً، فلا يتيّسر ترميمه وتجديده إلّا بالحدس والتنبؤ.

وقد تمكّن شلاير ماخر بعد جهدٍ كبيرٍ، من تأصيل القوانين النحويّة والأدبيّة في ما يتّصل بالضلع الأوّل لظاهرة فهم النصّ، ومع هذا كله قد التفت التفاتة جيدة إلى مسألة وهي أنّه يجب أن لا نكتفي بهذه القوانين في عمليّة الترميم الحدسي لمراد النصّ؛ على اعتبار أنَّ فهم النصّ قائم على التنبؤ، ولا يقصد من التنبؤ الإلهام والرحمة الإلهيّة الخاصّة بل يقصد به الحدس نفسه، وقد أدرك جيداً استحالة تأصيل هذه الجهة الحدسيّة والتنبوئيّة للتأويليّة

والتفسيريّة[٦]، ومن هنا يمكننا القول إنّ عمل شلاير ماخر يتمثّل في تأصيل منهجيّة معتبرة للاحتراز من سوء الفهم والسقوط في الفهم الناقص.

السادس: لم يرغب شلاير ماخر في طبع آثاره التأويليّة، ويرجع هذا – حتماً– إلى مشروعه الفكري الذي بقي ناقصاً، فإنّه لم يستطع أن يجد حلاً لتمايلاته المتناقضة في الفكر التأويلي؛ فإنَّ في فلسفته ميلاً عميقاً إلى مقصدين:

المقصد الأول: إنَّ اتجاهه الديكارتي ساقه إلى تأصيل فنٍّ باسم التأويليّة في قالب منهجيّة عامّة لمقولة الفهم.

المقصد الثاني: إنّ اتجاهه الفلسفي الرومانسي يجعله يصرّ على البعد الجدلي (الدياليكتيكي) والتنبؤي للفهم.

وفي النتيجة: تحت وطأة البصيرة أو الإحساس الشهودي والحدسي تخلّى عن اتجاهه الديكارتي وميله إلى تأصيل منهجيّة عامّة ومجموعة قواعد عامة.

فقد حاول شلاير ماخر أن يجمع بين الأرضية الرومانسيّة لفكره، الذي ورثه من كانط المؤمن بقصور الفهم الإنساني وانحسار إدراكه في الظواهر (لا الأشياء في نفسها) واليأس التامّ من نيل الحقيقيّة المعتقدة، وبين رؤيته الديكارتيّة التي تسعى إلى تأصيل مقولة الفهم، في حين أنَّ البعد الديكارتي من فكره يريد أن يكون أكثر عموميّة.

يؤكد فكره الرومانسي على عموميّة سوء الفهم، وهذا جعله يقتنع بأنّ مجرد تأصيل قواعد عامّة لا يمكّننا من حل إشكاليات الفهم[٧].

السابع: من النكات المهمّة التي أثارها شلاير ماخر في مجال التأويليّات مسألة دوريّة الفهم، وقد اقترحها بغية تحليل ظاهرة "فهم النصوص"، ثُمَّ وسَّعت التأويليّة الفلسفيّة من دائرتها بحيث باتت تشمل جميع صور الفهم ولا

تقتصر فقط على فهم النصوص، وتؤكد الحلقة التأويليّة (Hermeneuticalcircle) نكتة مؤداها: كيف يتّم الارتباط بين الجزء والكل في "حركة دائرية" في تحقّق ظاهرة الفهم والتفسير؛ على اعتبار أنَّ فهم الكل يرتكز ضرورة على فهم الأجزاء، وفهم الأجزاء يرتكز ضرورة على فهم الكل[٨] وعلى أساس هذه المسألة أي "دورية الفهم" يضحى التعلّم عبارة عن عمليّة إحالة إلى الغير؛ فإنّنا ندرك شيئاً ما بقياسه إلى شيءٍ ثانٍ نفهمه بشكلٍ أحسن.

فالحلقة بوصفها كلاً تُعرِّف الأجزاء التي تشكّلها وتقوّمها؛ فالجملة عبارة عن وحدة يتعيّن معنى كلّ جزء من أجزائها من خلال إرجاعه إلى كلّ الجملة، ومعنى الجملة يرتبط أيضاً بمعاني أجزائها ومكوناتها؛ فبهذه العلاقة الجدلية المتناظرة بين الكل وأجزائه يكتسب كلّ واحد منهما معناه الخاص بإرجاعه إلى الآخر، ومن هنا كانت عملية الفهم دورية وعلى مستوى هذا الدور يتعيَّن المعنى، وتسمى هذه المفردة التأويليّة: الحلقة التأويليّة[٩].

وقد كانت هذه المفردة التأويليّة بالنسبة لمؤسس التأويليّة الحديثة (شلاير ماخر) مبدأ إلهام بالنسبة إلى التأويليّة الفلسفيّة، فقد أكّد هايدجر في فصلٍ مشهورٍ من كتابه "الكينونة والزمان" على أنَّ الحركة الحلقويّة تكمن في كلّ صورة من صور الفهم: "كل تفسير يسعى إلى فهم شيء يجب أن يفهم قبل ذلك الشيء الذي يسعى إلى تفسيره"؛ فهايدجر يعترف بأنّ "الحلقة التأويليّة" على ضوء الفهم الرائج للعلم والمعرفة والذي يسعى إلى الموضوعيّة في ظاهرة الفهم وينظر إلى موضوعات الفهم، بوصفها حقيقةً من الحقائق وشيئاً من الأشياء تحتضن - في النظرة البدوية - في أحشائها التناقض والدور الباطل. إذْ لا يمكن الالتزام بأنّ المعرفة التي تُمثّل نتاج فعاليات علميّة تكون فرضيّة قبليّة

ومعلومة مسبقاً، حتّى لو كانت هذه الفرضيّة القبليّة توظف في إطار معلوماتنا المشتركة في ما يتصل بالإنيان والعالم[١٠].

هذا التناقض لم يغب عن بال شلاير ماخر لكن حلّه لهذه الإشكاليّة يختلف عن حلّ هايدجر الذي يقوم على هدم الفهم الرائجة للعلوم والمعارف (سنعرض له في محله المناسب)، أمّا طريقة شلاير ماخر فتتمثّل في أنَّ فهم النصّ يرتكز على العلاقة التعاكسيّة المتحقّقة بين الأجزاء والكل والمقايسة بينهما، ولكن هذا كله لا يمثل نهاية القصة، بل يسهم في عمليّة فهم النصّ عنصر الشهود والتنبؤ، وعلى هذا الأساس، لا يمكن للمنطق وحده أن يكشف عن حقيقة النصّ؛ لأنَّ ما في مقدوره أن يفعله هو المحاسيّة والمقاسيّة بين الأجزاء والكل؛ أمّا الشهود والتنبؤ فخارجان عن دائرة المنطق.

فإذا كان فهم النصّ يرتكز على العلاقة التعاكسيّة بين الأجزاء والكل، فمن الطبيعي أنْ تُمسي الحلقة التأويليّة مستحيلة منطقيّاً؛ لأنَّ المفسِّر قبل أن يدرك الأجزاء يتعيَّن عليه درك الكل، ومن جهة ثانية لا يمكنه تصوّر الكل بدون تصوّر الأجزاء في الرتبة السابقة، وهذا تناقض لا يقبل الحل، أمّا إذا أدخلنا عنصري (التنبؤ والحدس) في عملية فهم النصّ؛ فالمفسِّر ينفذ في داخل الحلقة التأويليّة الأمر الذي يؤهّله لدرك الأجزاء بالكلّ ودرك الكلّ بالأجزاء من دون وجود ترتب منطقي بين الإدراكين، ومن ثم ينتفي التناقض المفروض من الأساس.

الثامن: النكتة المهمّة في تأويليّة شلاير ماخر هي أنَّ الرجل يعتقد، مثل أسلافه، بإمكان الفهم الموضوعي للنصّ؛ أي: أنّه يعتقد أنَّ درك المقصود والمراد الواقعي لفاعل الكلام أمرٌ ممكن وقابل لوضع اليد عليه، ويؤمن

بإمكان مطابقة فهم المفسِّر لمعنى النصّ الـواقعي (ذهنيّـة المؤلِّـف)، والتفـات شلاير ماخر إلى مسألة سوء الفهم وأنّ المفسِّر دائماً في معرض السقوط في سوء الفهم لم يبعده عن إمكان فهم النصّ فهماً موضوعيّاً ولم يجره إلى ورطة التفسير الذاتاني، وهذه النكتة من وجوه التفاوت بينه وبين التأويليّة الفلسفيّة.

وكذلك تأكيد شلاير ماخر على دوريّة مقولة الفهم لم تجعله يعتقد بمسألة "لا نهائيّة عمليّة الفهم" فإنّ جادامر يـصرّح بـأنّ شـلاير مـاخر لم يلتـزم أبـداً بمسألة "لا نهائيّة عمليّة الفهم"؛ لأنَّه كان يتكّلم عن "الفهم الكامل للـنصّ"، ومن يرى أنَّ النصّ يقبل الفهم الكامل فإنَّـه يلتـزم لا محالـة بالنهائيّـة لعمليّـة تفسير النصّ.

يتّضح لنا ممّا سبق أنّ شلاير ماخر، الذي يُعدُّ أباً للتأويليّة الحديثـة؛ فقـد كانت بعض أطروحاته مبدأ إلهامٍ لمن جاء بعده من المحقّقين بما فيهم أصحاب التأويليّة الفلسفيّة، تختلف تأويليّته عن التأويليّـة الفلـسفيّة اختلافـاً جوهريّـاً وأساسيّاً؛ لأنَّ التأويليّة الفلسفيّة لم تلقَ اهتمامـاً لــ"محوريـة المفـسِّر" ولم يكـن "فهم مراد المؤلِّف" هو الهدف من عملية التفسير عنـدها، في حـين أنّ رسـالة التأويليّة لدى شلاير ماخر تتمثّل في استنباء ذهنية المؤلّف وفردانيته، وبكلمات أُخَر: التفسير، في نظر شلاير ماخر، يجب أن يدور على "محوريّة المؤلِّف"، ومن وجوه التمايز بين تأويليّة شلاير مـاخر والتأويليّـة الفلـسفيّة اعتقـاده بإمكـان التفسير الموضوعي للنصّ، فيما يُمثّل تفسير الـنصّ (بـل مطلـق الفهـم) عنـد التأويليّة الفلسفيّة أمراً ذهنيّاً ذاتيّاً.

ويضاف إلى هذا كله أنّ شلاير ماخر يعتقـد - كـما أشرنـا إلى ذلـك فـيما سبق- بـ"نهائيّة عمليّة الفهم"، أمّا عند التأويليّـة الفلـسفيّة فـإنّ عمليّـة فهـم

النصّ تنشأ من عملية انصهار أفق معنى المفسِّر مع أفق معنى النصّ، وهذا الانصهار ينطوي على إمكانات لا حدّ لها، وبالتالي تكون ملاعبة معنى المفسِّر مع النصّ لا إلى نهاية.

التاسع: يتمثّل نظر شلاير ماخر، في استنباء فكر المؤلّف وإخضاعه لتجربة جديدة[11] (فإنَّ الرجل لم يفصل أبداً بين العبارات ومؤلِّفها)، وهذه التجربة الجديدة لم نحصل عليها من طريق تحليل نفسانيّة المؤلّف ومن خلال تحديد محركات إحساساته، بل نحصل عليها من خلال معرفة فنّ تجديد فكر المؤلِّف، وهذا الفنّ يحصل في ظل التعاطي الشهودي مع النصّ.

فهدف المفسِّر، عند شلاير ماخر، لا يتمثّل في وضع النصّ جانباً وذلك بدراسة نفسانيات المؤلّف والنفوذ في باطن ذهنياته، بل هدف المفسِّر هو أن يسعى من خلال تحليلاته إلى اصطياد ذهنيّة المؤلّف المتجليّة في النصّ، وعلى هذا الأساس تتعيَّن وظيفة المفسِّر في التخلّي عن ذاته ووضعها في داخل المؤلّف حتى يشهد المراتب التي مرّت من خلالها ذهنياته إلى أن يظهر النصّ ويتجلّى في الخارج، وبالتالي: يتسنّى له اصطياد المعنى المراد والمقصود من النصّ[12].

كان شلاير ماخر واعياً كلّ الوعي بأنّ "عملية الفهم" لا تتيَّسر إلَّا باشتراك أفراد النوع الإنساني في أصل الوعي الواحد (الوجدان المشترك)، الأمر الذي يؤثِّر في فهمهم ليس معاني الكلمات فحسب، بل حتى في فهمهم لإشارات الآخرين وسلوكياتهم.

وببيانٍ آخر: إنَّ هذا "الاشتراك في الوعي" يجعلنا، من خلال وعينا بأنفسنا وبإحساساتنا، قادرين على فهم معاني كلمات الآخرين وإشاراتهم،

وعلى هذا الأساس ادّعى شلاير ماخر أنَّ الاشتراك في الإنسانيّة هو أساس كلّ عملية فهم، ومع تفطنه لهذه النكتة (التي تنماز بأهمية فائقة) ووعيه الكامل بها لم يفلح في بناء – على أساسها – تأويليّة عامّة ومناسبة، بل جعل الاتجاه التقليدي نفسه في تفسير النصوص محور تأمّلاته وتحليلاته التأويليّة، ووُفِّق فقط لبعض الابتكارات، منها إخراج التأويليّة من دائرة النصّ وحصرها فيه إلى فضاء الكلام الشفاهي، استمداداً من هذه النظريّة وتأكيداً على ضرورة التعاطف (الوجدان المشترك) وتجديد عمليّة الفهم، فقد تمكّن ديلتاي في حين محافظته على الغاية النفسانيّة لتأويليّة شلاير ماخر من توسيع دائرة هذا الحقل المعرفي الجديد بحيث طال جميع فروع العلوم الإنسانيّة وتجاوز حدود الفهم الكلامي والنصّي[١٣].

الهوامش

(١) Truth and Method ،PP. ١٨٨ ،١٨٩

(٢) قد بسط ناصر حامد أبو زيد هذه المسألة في كتابه: آليات القراءة وإشكالات التأويل: ٢١.

(٣) Routledge Encyclopedia ،Vol ،٤P . ٣٨٦

(٤) Palmer Richard E: Hermeneutics ،P . ٩٠

(٥) anneneberg Wolfhart ،Hermeneutics and universal Histoty ،state university of new york press ،P . ١١٧

(٦) Introduction to Pholosophical Hermeneutics PP ٧٢ ،٧١ warnke Georgia Gadamer.

(٧) Sources of Hermeneutics ،p . ٨

(٨) داوود كوزنز هوي، الحلقة الاتفادية: ٥١.

(٩) Hermeneutics ،P. ٨٧

(١٠) Being and Time ،P ١٩٤.

(١١) ممن تأثر بهذه النظريّة (ترميم ذهنيّة المؤلّف وتجربتها تجربة جديدة) المحقّق الكبير ويلهلم ديلتاي الذي سعى من خلال تعميمه لهذه النظريّة (بحيث تجاوزت النصّ وباتت تشمل جميع العلوم الإنسانيّة) إلى إيجاد منهجيّة عامّة للوصول إلى هذا الوجدان المشترك (التعاطف) والتجديد على مستوى جميع فروع المعرفة الإنسانيّة.

(١٢) Hermeneutics ،P ٩٠-٨٩.

(١٣) Hermeneutics and Modern Philosophy ،PP ١١٨-١١٧.